ومن رثائه قولهُ في مارون النقاش لما توفي في طرسوس سنة ١٢٧١ من ابيات:

فقدنا اديباً كان طرس يراعهِ ... اذا خطَّ سطراً نال من خطِّهِ شطرا
اخا شيمٍ قد اعجزتْ عن مديحها ... لساني فاسى لا يُطيق لها شكرا
وما كنتُ يا مارونُ قبلك زاعماً ... بانَّ الثرى من اعيني يحجبُ البدرا ...
فكم لك في الاداب لطفُ شمائلٍ ... اذا ما نثرنا ذكرها نفحت نشرا
وكم لك من ابيات شعر حريةٍ ... جا أن تُحاكي جيدَها النادةُ العذرا
ألا يا بني النقَّاش لا يحزنَّكم ... بكاً وسَع الاجفان او ضيَّق الصدرا
أرى الدهر لما قسَّم الحزنَ خصَّنا ... بتسعة اعشارٍ وحمَّلكم عشرا ...
فآسف لو كان التأسُّف نافعاً ... عليهِ ولكنَّ القضاء لهُ احرى (له بقية)

حيَّة فوق سرير

تعريب احد طلبة كليتنا

قرأنا في مجلَّة افرنسيَّة الخبر الآتي بقلم رحَّالة افرنسي يدعى هنري كوسان دخل الهند في السنة ١٨٨٩ وتجوَّل فيها مدَّة مع قرينتهِ مرغريت وولديه جورج وعمرهُ سبع سنين وحنَّة التي لم يتجاوز سنُّها تسعة اشهر

قال وصلنا بعد سفر طويل الى مدراس ثمَّ توغلنا في البلاد الداخليَّة حتى بلغنا قرية تدعى متاني يسكنها الهنود وفيها المزارع والغابات وكان السفر قد انهك قوانا فطلبت اليَّ امرأتي مرغريت أن نقضي هناك اسبوعاً لتشتدَّ قوانا فنواصل بعدها طريقنا. فاستحسنتُ رأيها ودخلنا بستاناً فطلبنا من صاحبهِ ان يفرد لنا قسماً من بيتهِ نأوي اليهِ أياماً وندفع لهُ اجرتهُ فعرض علينا بيتاً صغيراً مجاوراً لبستانهِ تكتنفهُ حديقة فيها كثير من اشجار الهند الباسقة ورضي بان نبيت فيهِ ما شئنا لا يزعجنا في المكان غريب. فقبلنا بالسكنى واحتللنا الدار

فبتنا هناك ثلاثة ايَّام في العزلة والانفراد لكنَّا كنَّا نسمع اصوات الهنود المزعجة فنظنُّ أنَّهم يريدون لنا سوءاً فنبقى في حذر منهم. ومع خوفنا من اذاهم كنَّا متمتعين بسعادة ناتجة عن السكينة وجودة الصحة مع سهولة حصولنا في الحديقة على ما يسدُّ احتياجنا للمعاش من بقول وخضر واثمار جنيَّة. وكنا نقضي ساعات النهار في الحديقة

نستظلّ تحت اشجارها ونغتسل بمياهها ونجتني ثمارها فتنعش ارواحنا وتثوب قوانا

ففي صحر اليوم الخامس اذ كنت ادور في البستان وعلى كتفي بندقيّة لأتصيّد بعض الطيور الجاثمة على اغصان الشجر ومرغريت جالسة على طرف الحديقة وبازائها سرير كانت ابنتنا الصغيرة نائمة فيه وجورج يمدو بين الزهور ويجمع منها طاقة ليهديها امّهُ اذ سمعت فجأة امرأتي تدعوني اليها بصوت مرتجف يدلُّ على انها مصابة بهول هائل فالتفتُّ اليها وقد احاق بي الوجس والاضطراب. فرايتها قد امتُقع لونها وهي تمدُّ اليَّ يديها كأنها تطلب النجدة. فدنوتُ منها وطرحت عني البندقيّة لاسندها بذراعيَّ . فاطبقت عينيها وارتجفت اعضاؤها ثم اغمي عليها فسقطت على الحضيض

فغلب على ظني في اوّل الامر انَّ قومًا من المتوحّد دخلوا المنزل قصد النهب والسرقة او عدوًا استخفى في الحديقة بغية الاذى وكانت الافكار تتناوبني وتزيدني همًّا وغمًّا. لكنني تجلّدت وسكّنت هواجسي وزجرت نفسي على خوَرها ثم اخذت انظر الى ما حولي فلم اشعر بشيء مكدّر. وكان ابني جورج مهتمًّا بتنظيم طاقة زهوره وكان كلبنا دوغ نائمًا عند باب البيت لا يوجس حراكًا. فبقيت متحيرًا في امري وامرأتي لا تزال مغشيًّا عليها فاسرعتُ الى ما هو اهمّ واخطر وجئت بشيء من الماء فنفحت به وجهها ففتحت عينيها ونظرت الى جهة مهد ابنتها فساد عليها الاضطراب ثانية وصرخت بصوت منقطع كاد الجزع يخنقهُ: انظر مهد ابنتنا . . . حيَّة. فتقدَّمت الى ناحية السرير وكان يسترهُ عن نظري شجيرات ملتفة حولهُ. واذا بمنظر كاد يجمد لهُ دمي في عروقي. رأيت حيَّة طويلة سوداء اللون في ضخم الساعد قد التف قسمها الاسفل على قوائم السرير وارتفع قسمها الآخر على مهد الفتاة فاسندت راسها الى صدر حنَّة وكانت هذه مكشوفة الوجه مطلقة اليدين غائصة في نومها الهادىء. وكذلك الحيَّة ما كانت تبدي حراكًا كأنها توسّدت الفتاة واتخذت جسمها الناعم كفراش وثير

فحدّث عمَّا جرى لي من الهواجس لدى هذا المرأى ولا حرج فصرتُ كمن أُصيب بمسّ في عقلهِ فقفَّ شعر رأسي وارتجفت فرائصي وسال على جبيني عرَق بارد فكدت اغيب عن الصواب. الّا اني نظرتُ امرأتي قامت واقتربت مني وقد اخذ منها الهلع كل مأخذ فخفت ان تتأثر باضطرابي فيزيد جزعها. فاشرتُ اليها أن: قفي في مكانك ولا تتحركي. فاطاعت امري

فبقيت اتفرس في هـذا المنظر المخيف وفي موقف ابنتي الحرج وقلت في نفسي : يا لله كيف تنجو الفتاة من نفثات هذه الافعى الخبيثة فلعلّها تستيقظ قريباً فتحرك فتلسعها الحيّة وتردي بحياتها . فكنت اتقلّب على احرّ من جمر القتاد . وخطر ببالي عدة وسائط اتوسّل بها لخلاص ابنتي لكنّ في اتخاذها عقبات ومخاطر . فكيف اقتلها دون ان يثور ثائرها وتؤذي الطفلة كيفما شاءت وهي رابضة على جسمها . وفكّرت في اناء حليب اجعلهُ قريباً من المهد تشمّهُ الحيّة راتحتهُ فتنساب اليهِ وتنجو الفتاة . ولكن انّى الحصول على الحليب في قرية لا اعرف احداً من اهلها وليس تحت يدي خادم ارسلهُ لاستحضاره مع مسيس الحاجة وقرب الخطر . وكانت كل هـذه الافكار تتنازعني ونظري شاخص الى السرير لا يحيد عنهُ بل كنت اضبط صوت انفاسي لئلّا يبعث الفتاة او الحيّة من رقادهما

بقيت وامرأتي على ذلك دقائق حسبتها اجيالاً ثم اشرت الى مرغريت ان ائتيني بالبندقيّة . فأتت بها مرتعبة وابتعدت عن المكان لئلا تنظر ما يضاعف اهوالها فاحقت بابنها جورج . فشكرت الله على ابتعادها اذ كان قربها مني يهدّ عزيمتي ويكسر عضدي

ثمّ اخذتُ رصاصة ووضعتها في البندقيّة ووقفتُ للحيّة بالمرصاد لأُصيب منها مقتلاً . فرّ عليّ في هذه الحالة نصف الساعة ذقتُ فيها الموت الزؤام . وكانت عيناي تتحوّلان من الفتاة الى الحيّة ومن الحيّة الى الفتاة واعارض سكينة ابنتي وَدَعَتها وثغرها الباسم بشناعة ذلك الحيوان الخبيث وويلاته المهلكة . فكانت تلك المقابلة تهيج كل عواطفي الابويّة فأشعر بنفسي كأني مصاب بدوار او لعبت في رأسي نشوة الراح

وأنا كذلك اذ رأيت النائمتين قد استيقظتا في وقت واحد وسمعت صوت بكاء الفتاة فكاد قلبي ينفطر واعددتُ بندقيّتي وتربّصت في مكاني . فكأنّ الحيّة شعرت بحركاتي فرفعت راسها وحملقت اليّ بعينيها واذا هما تتقدان كجمرتي نار وكانت تمدّ لسانها الطويل ثم تخطفهُ بسرعة البرق كأنها تتحفّز للشرّ . فقلت في نفسي : قد حان وقت العمل . فصوّبت البندقية نحوها فحطّت براسها نحو الفتاة كأنها تفتك بها فثُخب قلبي واستُطير لبي واصاب يدي نوع من الشلل وخفت ان اطلقتُ البندقية أن اقتل ابنتي بدلاً من الحية او معها

اما حنَّة الصغيرة فانها لم تدرك ما احدق بها من المخاطر فرفعت يديها الصغيرتين الى الحية كأنها تريد ان تُلاعبها فلم تمالك عند هذا المنظر من ان اصرخ: ربي ترحَّم على كريمتي. فكأن هذا الصوت ارعب الحية وامال رأسها من الطفلة لتصرف اليَّ غيظها فاخذت تُميل راسها نحو اليمين ونحو الشمال وتصوب اليَّ بعينيها وتنفخ بحنقها

فعرفت ان الخطب قد اشتدَّ وانهُ لا مناص لي وللفتاة من دهائها فرفعت بنظري الى الله مستمدًّا منهُ العون وشعرت كأنَّ قوة كهربائية سرتْ في نظامي فصوَّبت ثانية بندقيتي الى الحية وشددت الزناد واطلقت الرصاص عليها. فانتشر الدخان واخفاها والفتاة عن عيني لكني سمعت بكاء الطفلة وطرق آذاني حفيف الحيَّة مسرعة بين اوراق العشب الى وكرها. فهجمت نحو ابنتي وانا على آخر رمق وسقطت بقرب سريرها بين حيٍّ وميت. واسرعت امرأتي وابني جورج فركضا الى جهتي. فقمتُ للحال لأرى ما حلَّ بالفتاة فاذا هي صحيحة سالمة فاخذتها وسلَّمتها الى والدتها التي أهطلت الدموع فرحًا بعد جزعها ويأسها

ثمَّ اخذتُ اتتبع طريق الحيَّة لئلا تحدث بنا سوءًا فلم اجد لها اثرًا الَّا اني رأيت في اصل شجرة ثقبًا فقلت لعلها دخلت في هذا الثقب فاطلقت فيهِ الرصاص. وبعد هنيهة سمعتُ ابني جورج يصرخ فركضت اليهِ فرأيت ليس بعيدًا منهُ حيَّة ضخمة تتلوَّى وتسير سيرًا بطيئًا لكنَّ علائم السخط تلوح من حركاتها. فلمَّا رأتني عرفت عدوَّها فحاولت ان تثب عليَّ لكنَّ قواها كانت خائرة فلم تستطع ان تلحق بي سوءًا فشججتُ راسها بطرف بندقيتي. ثمَّ قستها واذا بطولها خمس اذرع بنيف وهي من جنس الحيَّات الخبيثة التي تُهلك في الهند مئين من السكان. ولم تشأ امرأتي ان تبقى في ذلك المكان الى آخر الاسبوع بل رغبت اليَّ ان نبتعد عنهُ سريعًا فخرجنا مواصلين لسفرنا